Adab Al-Rafidayn

https://ojs.uomosul.edu.iq/index.php/radab

Industrial contributions of the of the Covenant in the Levant People during the Crusades (491-589 AH)

Muhammad Shaker Ahmed

Department of History\ College of Education for Girls\ University of Kirkuk \ Kirkuk -Iraq

Article Information

Article History:

Received Oct 29,2025

Revised Nov 08 ,2025

Accepted Nov 16,2025

Available Online January 1, 2026

Keywords:

People of the Covenant,

Levant,

Crusades,

Industries,

Islamic emirates

Correspondence:

Muhammad Shaker Ahmed

mohammadshakir@uokirkuk.edu.iq

Abstract

This research examines the industrial role of the People of the Covenant (dhimmis) in the Levant, as they were among the indigenous populations, during the Crusades (491–589 AH/1098–1193 AD). This was a significant historical period characterized by military, political, and economic conflict, which cast a shadow over all components of Levantine society, including Christians. The research seeks to highlight the contribution of the People of the Covenant (dhimmis), both Christians and Jews, to economic life through their diverse industrial activities and their role in supporting the economic structure of the Crusader cities.It is worth noting that the research focuses on the most prominent industries that distinguished the People of the Covenant, such as glassmaking and olive oil, as well as textiles, tanning, goldsmithing, and others. It also discusses the factors that facilitated the emergence and development of industry during this period, as well as the factors that helped the People of the Covenant grow their industrial activity, including the accumulation of craft expertise and the availability of raw materials and markets, which contributed significantly to the development of industries.The research also reveals the nature of the relationship between the People of the Covenant and the Crusader rulers on the one hand, and between them and the Muslims on the other, explaining how their participation in industries contributed to strengthening economic activity despite the wartime conditions. It also demonstrates that the continued industrial activity of the People

of the Covenant helped meet the needs of the Crusader emirates for goods and provided financial resources through taxes and fees. The research concludes that the industrial contribution of the People of the Covenant was not marginal, but rather one of the fundamental pillars of the resilience of the Crusader economy.

DOI: 10.33899/radab.2024.150935.2184, ©Authors, 2023, College of Arts, University of Mosul.
This is an open access article under the CC BY 4.0 license (http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/).

إسهامات أهل الذمة الصناعية في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية (491–589هـ)

محمد شاكر أحمد *

مستخلص:

يتناول هذا البحث دراسة الدور الصناعي لأهل الذمة في بلاد الشام كونهم من السكان الأصليين خلال فترة الحروب الصليبية (491–589هـ/1098–1193م)، وهي مرحلة تاريخية مهمة اتسمت بالصراع العسكري والسياسي والاقتصادي؛ مما ألقى بظلاله على جميع مكونات المجتمع الشامي من ضمنهم النصارى، ويسعى البحث إلى إبراز مساهمة أهل الذمة، من نصارى ويهود في الحياة الاقتصادية من خلال أنشطتهم الصناعية المتنوعة، ودورهم في دعم البنية الاقتصادية للمدن الصليبية.

مما تجدر الإشارة إليه إن البحث ركز على أبرز الصناعات التي تميز بها أهل الذمة، مثل صناعة الزجاج وزيت الزيتون فضلًا عن صناعة النسيج والأقمشة، والدباغة، والصياغة، وغيرها، كما يناقش العوامل التي ساعدت على ظهور الصناعة وتطوريها في هذه المدة، كذلك العوامل التي ساعدت أهل الذمة على نمو نشاطهم الصناعي، ومنها تراكم الخبرة الحرفية، وتوفر المواد الأولية والاسواق، التي ساهمت وبشكل كبير في تطور الصناعات.

ويبين البحث كذلك طبيعة العلاقة بين أهل الذمة والحكام الصليبيين من جهة، وبينهم وبين المسلمين من جهة أخرى، موضحًا كيف أسهمت مشاركتهم في الصناعات في تعزيز النشاط الاقتصادي رغم ظروف الحرب، كما يوضح أن استمرار النشاط الصناعي لأهل الذمة ساعد في سد احتياجات الامارات الصليبية من السلع، ووفّر موارد مالية عبر الضرائب والرسوم، ويخلص البحث إلى أن المساهمة الصناعية لأهل الذمة لم تكن هامشية، بل كانت إحدى الركائز الاساسية في صمود الاقتصاد .

الكلمات المفتاحية: أهل الذمة، بلاد الشام، الحروب الصليبية، الصناعات، الأمارات الإسلامية.

المقدمة:

شهدت بلاد الشام في الممتدة بين عامي (491هـ-589هـ/1098-1193م) مرحلة تاريخية دقيقة تمثلت في الحروب الصليبية التي تركت آثارًا عميقة على مختلف جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وفي خضمّ تلك الظروف العصيبة، برزت أدوار متعددة لمختلف فئات المجتمع، ومن بينها أهل الذمة الذين عاشوا في كنف الدولة الإسلامية، وتمتعوا بقدر من الحماية القانونية والاجتماعية مكّنهم من ممارسة شؤونهم الحياتية والمهنية لقد كانت الإسهامات الصناعية لأهل الذمة في تلك الحقبة من العوامل المهمة التي ساعدت على استمرار الحركة الاقتصادية، وعلى الحفاظ على التوازن الاجتماعي في بلاد الشام على الرغم من التحديات العسكرية والسياسية التي

* قسم التاريخ /كلية التربية للبنات/جامعة كركوك/ كركوك - العراق

فرضتها الحروب، فقد تميز أهل الذمة من النصارى واليهود، على وجه الخصوص بمهاراتهم في الصناعات الحرفية الدقيقة كالنسيج، والدباغة، وصناعة المعادن، والزجاج، والخزف، وغيرها من المهن التي كانت تمثل عماد الاقتصاد المحلي آنذاك، كذلك أسهموا في نقل الخبرات والحفاظ على استمرارية الإنتاج، ومن هنا جاء سبب اختيار هذا الموضوع الذي يعود إلى الرغبة في إبراز الدور الحضاري لأهل الذمة في المجتمع الإسلامي، وتوضيح مدى اندماجهم ومشاركتهم الفاعلة في بناء الاقتصاد المحلي، بعيدًا عن الصورة النمطية التي تصوّرهم على هامش الحياة العامة، كما أن دراسة هذا الجانب الصناعي تسهم في الكشف عن مدى تسامح الدولة الإسلامية وقدرتها على استيعاب التنوع الديني والمهني في وقت الأزمات، مما يعكس طبيعة العلاقات بين مختلف مكونات المجتمع الشامي، وتجدر الإشارة إلى أنه لا توجد – بحسب إطلاع الباحث – دراسات سابقة متخصصة تناولت هذا الموضوع بشكل مباشر، سوى بعض الإشارات العامة التي وردت ضمن بحوث تتناول طبيعة العلاقات بين مكونات المجتمع الشامي آنذاك، وتنبع أهمية هذا البحث من كونه يلفت الانتباه إلى الجانب الاقتصادي والاجتماعي المهم في تاريخ بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، ويسعى إلى توثيق مساهمات فئة كان لها حضور ملموس في الصناعات والحرف، الأمر الذي يساعد في فهم البنية الاقتصادية للمجتمع الشامي، ودوره في مواجهة التحديات الخارجية، كما يضيف هذا البحث بعدًا جديدًا للدراسات التاريخية بربط النشاط الصناعي بالسياق السياسي والاجتماعي لتلك المرحلة.

وأما الهدف من هذه الدراسة فهو تسليط الضوء على الدور الصناعي لأهل الذمة في بلاد الشام في زمن الحروب الصليبية (491–589هـ/1098-1193م) بدراسة طبيعة هذه الصناعات، ومراكز انتشارها، وأهميتها الاقتصادية والاجتماعية، ومدى تأثيرها في بنية المجتمع الشامي، كما يسعى إلى تحليل العوامل التي ساعدت على قيام هذه الصناعات التي ساعدت على استمرار مشاركتهم في النشاط الصناعي رغم التحديات، وإبراز الإطار القانوني والإداري الذي نظم علاقتهم بالسلطة الإسلامية.

إن تناول هذا الموضوع يسهم في فهم أعمق لبنية المجتمع الشامي في العصور الوسطى، ويكشف عن تفاعل مكوّناته الدينية والاقتصادية في مواجهة التحديات المشتركة؛ مما يعزز من قيمة الدراسات التي تعالج التاريخ الاجتماعي والاقتصادي لبلاد الشام في تلك الحقبة.

لذلك أرتى الباحث وقسم البحث إلى مبحثين: فكان المبحث الأول: عوامل قيام الصناعة الشامية الذي تضمن رأس المال والموقع الجغرافي والمواد الخام واليد العاملة، ثم جاء المبحث الثاني بعنوان دور أهل الذمة وإسهامهم في تطوير الصناعة؛ إذ اشتمل على مدخلٍ عامٍ للدراسة، وكذلك تضمن هذا المبحث على إسهامات أهل الذمة الصناعية، ثم خُتم البحث بخاتمة وقائمة للمصادر والمراجع.

المبحث الأول: عوامل قيام الصناعة الشامية

من البديهيات في أدبيات الاقتصاد أن الصناعة المتطورة تحتاج إلى ثلاث ركائز لكي تنهض وتتطور، وتتمثل تلك الركائز الأول: وجود رؤوس الأموال، وثانيًا: الموقع الجغرافي والمواد الخام في البلد المُصنع، وثالثًا اليد العاملة والخبرة اللازمة في الصناعة.

- **العامل الأول: رأس المال**

فأما العامل الأول فقد أنتبه إلى دورها المفكرون المسلمون قبل الغربيين، من ذلك ما قاله ابن خلدون **"فإذا تمدنت المدينة، وتزايدت فيها الأعمال ووفت بالضروري وزادت عليه، صرف الزائد حينئذ الى الكمالات من المعاش... وعلى مقدار عمران البلد تكون جودة الصنائع للتأنق فيها حينئذٍ، واستجادة ما يطلب منها بحيث تتوفر دواعي الترف والثروة ... واذا زخر بحر العمران وطلبت فيه الكمالات، كان من جملتها التأنق في الصنائع واستجادتها، فكملت بجميع متمماتها، وتزايدت صنائع أخرى معها مما تدعو إليه عوائد الترف وأحواله..."** [1]، ووفرة رأس المال يمثل أهم الركائز، فبحسب ما قرره ابن خلدون أن الإنسان عندما يملك المال الزائد بعد أن يوفر حاجاته الضرورية

[1] ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ)، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار ومكتبة الهلال، (بيروت – 1996م) ص255.

يبدأ يفكر في الكماليات التي تدخل في مستوى الترف الحياتي وتسهيل أمور العيش، وهنا يأتي دور العقل الذي يهيء المصانع والكفاءات اللازمة لذلك وهذه العملية تدور في حلقة تكاملية، فرؤوس الأموال مع الخبرة والتخطيط تؤدي إلى إيجاد الصناعات، وهذه الصناعات تكون سببًا في زيادة رؤوس الأموال وتنميتها؛ مما يؤدي إلى تطور الصناعة وابتكار صناعات أخرى.

ومما ننبه إليه في هذا المجال وله علاقة برؤوس الأموال وسائل الحصول على الأموال وتوفيرها؛ إذ اعتمد الصليبيون في توفير رؤوس الأموال على ما كانوا يستولون عليه في غزواتهم من أموال البلاد التي يجتاحونها، فضلًا عن الأموال المترتبة على افتداء الأسرى، إلى جانب الضرائب التي أوجدوها وفرضوها على سكان المدن التي احتلوها[1]؛ إذ شكلت هذه الضرائب إحدى الدعائم الرئيسة للخزينة الصليبية، وقد تنوّعت بين ضرائب عينية وأخرى نقدية، ومن الملاحظ أنّ أعباء هذه الضرائب كانت موزعة على مختلف فئات المجتمع في المدن الصليبية، ومن اللافت للنظر أنّ هذه الضرائب لم تكن تشكل عبئًا يُذكر على المستوطنين الصليبيين مقارنة بما كان يفرض على غيرهم، ولا سيما المسلمين وأهل الذمة[2].

يُضاف إلى هذه الموارد المالية ما كان يُجبى من حصيلة الغرامات، كما يظهر في الحادثة التي وقعت في الرها حين اطّلع بلدوين الثاني على المؤامرة التي دبّرها الأرمن ضده، فقد أُلقي القبض على المتآمرين وصودرت ممتلكاتهم، بينما فُرضت غرامات مالية باهظة على من سمح لهم بالبقاء في المدينة، مما مكّن بلدوين من تحصيل كمية كبيرة من الذهب بلغت نحو عشرين ألف قطعة[3].

ومن الأمثلة الجليلة على غنائم الحرب التي حصل عليها الصليبيون ما فعلوه عند استيلائهم على مدينة المصيصة؛ إذ نهبوا ثروات ضخمة من تلك المدينة مالية وعينية[4]، ومن الأمثلة على ذلك أيضًا الكميات الضخمة من الذهب والفضة، والأحجار الكريمة التي نهبوها من بيت المقدس عند احتلالهم لها، وقد وصف بعض المؤرخيون ذلك بقوله: **"ما لا تقع عليه الاحصاء"**[5].

وهذا ما يدفع إلى الاعتقاد بأن الأسباب الاقتصادية من الأمور المهمة التي تكمن في دفع الصليبيين لمهاجمة الأمصار الإسلامية واحتلالها، وقد وجهوا اهتمامهم إلى المدن الثرية ومنها: معرة النعمان في بلاد الشام **"الغنية ذات التعداد الضخم من السكان"**[6]، وقد وصف أهلها الصوري بأنهم شديدُ التفاخر بثرائهم الفاحش[7] وكذلك وصف الشارتري مدينة صور عند احتلال الصليبيين لها بأنها من أغنى مدن بلاد الشام وأكثرها شهرة[8].

---

(1) علي، العلاقات الاقتصادية، ص ١٢٦.

(2) أحدى تلك الضرائب كانت تسمى العشور والتي كانت الكنيسة تلزمها لجميع السكان بدفعها باستثناء المسلمون، لكن في عام 514هـ/ 1120م ألزم جميع السكان بما فيهم المسلمون بدفعها. براور، يوشع، الاستيطان الصليبي، ترجمة: عبد الحافظ الينا، (القاهرة-2001م)، ص ٤٤٩.

(3) الصوري، وليم، الحروب الصليبية، ترجمة: حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة ١٩٩١ م)، 2/ 28-29.

(4) المرجع نفسه، ٢٤٠/1.

(5) ابن الاثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم بن عبدالكريم الشيباني (ت ٦٣٠هـ)، الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، (بيروت - ١٤١٧ه)، 8/ ٤٢٥.

(6) ريموندا، جيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ترجمة: حسين محمد عطية، تقديم: جوزيف نسيم يوسف، (الاسكندرية - ١٩٩٠م)، ص ١٦٥.

(7) الحروب الصليبية،٣٤/2.

(8) الشارتري، فوشيه، تاريخ الحملة إلى القدس، ترجمة: زياد جميل العسلي، دار الشروق، (عمان -١٩٩٠)، ص٢٠٨.

ومن مصادر حصول الصليبيين على الأموال الاتاوات التي كانوا يفرضونها على سكان بلاد الشام، وقسم كبير منها يدفعه أهلها لتجنب شر الغزاة، ومن الأمثلة على ذلك ما فعله حكام شيزر وحماة؛ إذ دفعوا كميات كبيرة من الذهب والفضة، ورؤوس الماشية والأغنام إلى الاحتلال الصليبي درءًا لشرورهم[1].

مما تقدم يتبين أن وفرة الأموال عند الصليبيين الذين استولوا على بلاد الشام متأتيةٌ من ما كانوا يستولون عليه من الأموال بمختلف اشكالها في أثناء حملاتهم على مدن الشام فضلًا عن الضرائب والاتاوات وغيرها.

- **العامل الثاني: الموقع الجغرافي والمواد الخام**

أما الركيزة الثانية المتمثلة بالموقع الجغرافي ووفرة المواد الخام، فمن المعروف إن لبلاد الشام موقعًا جغرافيًّا متميزًا؛ إذ يربط بين الشرق والغرب، لذلك كانت بلاد الشام حلقة وصلٍ لطرق التجارة، وكانت سوقًا رائجةً يتبادل فيها العالم بضاعته، وهذا الموقع مثل دافعًا مهمًّا لازدهار الصناعة وتنوعها، وهذا الموقع أيضًا جعل من أسواقها وافرةً عامرةً بأنواع كثيرة من البضائع والتوابل والحلي وغيرها[2].

وقد دعم الموقع الجغرافي ما كانت تكتنزه بلاد الشام من معادن متنوعة في باطن أرضها وعلى وجه الأرض، وهذا العامل من أهم العوامل التي أدت إلى قيام صناعة متطورة آنذاك في جودتها وأنواعها، فمن المواد الخام الحديد الذي وصفه الإدريسي بأنه **"طيب جديد القطع"**[3] وقد وصف ابن العديم وجود الحديد في بلاد الشام بقوله **"ولم يكن على وجه الأرض بلد يعمل فيه الحديد المحزوز للكراسي الحديد واللجم**[4] **والمهاميز**[5] **والعمد**[6] **والدبابيس كما يعمل بالثغور"**[7].

ومما يلفت النظر في وصف كنوز بلاد الشام من المواد الخام أن كل ما في باطن الأرض وعلى ظهرها يمثل ثروة ثمينة حتى ترابها وطينها، إذ كان يصنع منه البواتق[8]، ومن المعادن التي كانت موجودة في بلاد الشام القار، والمغرة[9] والرمل الذي يصنع منه الزجاج وهو أبيض اللون[10]

---

(1) توريبود، بطرس، تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، ترجمة: حسين محمد عطية، تقديم: جوزيف نسيم يوسف، (د. م -١٩٩٩م)، ص٢٨٩.

(2) زيود، محمد أحمد، حالة بلاد الشام الاقتصادية منذ العصر الطولوني وحتى نهاية العصر الفاطمي، دار الفكر، (دمشق - ١٩٩٢م)، ص ١٨2.

(3) الادريسي، محمد بن محمد بن عبدالله (ت560هـ)، نزهة المشتاق في اختراق الافاق، عالم الكتب، (بيروت-1409هـ)، 371/1؛ المقدسي، أبو عبدالله محمد بن أحمد (ت 380هـ)، أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، دار صادر، (بيروت- د.ت)، 184.

(4) اللجم : جمع لجام، وهو ما يوضع في فم الدابة من عصا او حبل، وتشد الى قفاه . ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي (ت٧١١هـ)، لسان العرب، دار صادر، ط٣، (بيروت - ١٤١٤هـ). 534/12.

(5) المهاميز: مفردها مهمزة، عصا في رأسها حديدة تنخس بها الدواب. المصدر نفسه، 425/5.

(6) العمد: مفردها عمود، وهي على عدة أنواع منها من خشب ومنها من حديد، ويسمى قضيب الحديد عمودا . المصدر نفسه، 3/ 305-306.

(7) ابن العديم، عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة العقيلي، (ت ٦٦٠هـ)، بُغْيَة الطَّلَب في تاريخ حلب، تحقيق: سهيل زكار، دار الفكر، (د.م- د.ت)، 156/1.

(8) البواتق: مفردها بوتقة، اناء من خزف تصهر به المعادن. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت٧٦٤ هـ)، تصحيح التصحيف وتحرير التحريف، تحقيق: السيد الشرقاوي، مكتبة الخانجي، (القاهرة - ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م)، ص١٧٤؛ رضا، أحمد، معجم متن اللغة، دار ومكتبة الحياة، (بيروت - ١٣٧٧هـ /١٩٥٨م)،1/ ٢٣٦.

(9) المغرة: طين أحمر يصبغ به، وثوب ممغر اي مصبوغ بالمغرة. ابن منظور، لسان العرب، 181/5.

(10) ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله (ت 626هـ)، معجم البلدان، دار صادر، ط٢، (بيروت – ١٩٩٥م)،1/ ٤٢٦.

فضلًا عن معدن النحاس بالقرب من حلب[1]، ومعدن الكبريت الموجود في غور الأردن[2] وقد ذكر المؤرخون وجود معادن كثيرة في بلاد الشام من أهمها الرصاص والقصدير والبوتاس[3].

وكانت مجاري الأنهار وبطون البحار كنوزًا تضم معادن ثمينة، منها: الملح الذي كان يستخرج من باطن البحر الميت، ويستخدم في مهنة الصياغة ويسمى **"الحمر أو قفر اليهود"**[4]، وكانت بحيرة طبرية منجم للؤلؤ والمرجان[5].

كذلك حوت أرض بلاد الشام وتربتها على مصادر طبيعية غير معدنية كالحجارة والتراب؛ إذ مثلت موادّ أساسية استخدمت للبناء ولتقوية أساسات المباني، وقد وصف المقدسي عند حديثه عن جبال عمان بقوله: **"وبه جبال حمر يسمى ترابها السمقة، وهو تراب رخو، وجبال بيض تسمى الحوارة، فيه أرى صلابة يبيض به السقوف، ويطين به السطوح"**[6]، ومن المواد الخام الطبيعية مادة الرخام الذي وصفه ناصر خسرو عند دخوله مدينة الرملة؛ إذ قال: **"ورأيت هناك أنواعًا وألوانًا من الرخام، من الملمع والأخضر والأحمر والأسود والأبيض ومن كل لون"**[7] كذلك وجوده في مدينة اللاذقية؛ إذ يقول ابن الأثير عنها: **"عمارتها من أحسن الأبنية، وأكثرها زخرفة، مملوءة بالرخام على اختلاف أنواعه"**[8].

وبعد ذلك كله يمكن القول إن وفرة المواد الخام ودورها في تطور الصناعات الشامية زمن الحروب الصليبية كان سببًا لجلب أطماع الصليبيين لتلك البلاد كما كان نعمة؛ فقد كانت أرضها بكرًا تختزن أنواعًا كثيرة وبكميات كبيرة من المواد الخام الأولية التي حباها الله سبحانه وتعالى ليهيئها إلى تسنم دور قيادة العالم في ذلك الوقت وأداء دورها التاريخي المترتب على تكليف الله للمسلمين بالدعوة إليه ونشر الإسلام في أرجاء المعمورة.

وأما الركيزة الثالثة والأخيرة المتمثلة بالخبرة اللازمة الحرفية واليد العاملة، سوف نتحدث عنها في المبحث الثاني بالتفصيل، وبقي ثمة نقطةٌ ينبغي ذكرها في هذا السياق؛ إذ وجد المسلمون عند تحرير بلاد الشام وطرد الروم منه وجدوا أمامهم بلادًا مهيأةً لتأخذ دورها في بناء الدولة الإسلامية[9] الفتية التي لا يتجاوز عمرها العقدين من الزمن، ومما ميزَ الإسلام الحنيف أنه لم يكن دينًا ذا منهج إقصائي، بل استوعب جميع الناس في البلاد التي وصل إليها المسلمون، وأقر أهل الذمة على دينهم بشرط عدم منع المسلمين من تبليغ الدعوة والوقوف ضدها؛ لذلك فقد قال الله تعالى: (لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ) [10]، وطالما لم يواجه أهل الكتاب المسلمين ويحاربوهم فهم شركاء في الوطن لهم ما للمسلمين وعليهم ما للمسلمين من دفاع عن أرض الدولة الإسلامية وبنائها، فلم يهجروا الإسلام سكان البلاد المفتوحة بل أبقاهم، وهنا يأتي دور الحرفيين

---

[1] المصدر نفسه، 186/2.

[2] غور الاردن: منخفض ارضي بين بيت المقدس ودمشق، فيه نهر الاردن وبلاد وقرى كثيرة منها طبرية وبسيان واريحا. المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٨٤؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٢١٧/٤.

[3] كرد علي، محمد بن عبدالرزاق بن محمد (ت1372هـ)، خطط الشام، مكتبة النوري، ط3، (دمشق-1403هـ/1983م)، ١٦١/٤ – ١٦٤.

[4] ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله بن عبدالله (ت 280هـ)، المسالك والممالك، دار صادر افست ليدن، (بيروت- 1889م)، ص ٧٩.

[5] القزويني، زكريا بن محمد بن محمود (ت682هـ)، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، (بيروت –د.ت)، ص ٢١٨.

[6] أحسن التقاسيم، ص ١٨٤.

[7] ناصر، خسرو، سفرنامة، تحقيق: يحيى الخشاب، دار الكتاب الجديد، ط٣، (بيروت - ١٩٨٣م)، ص ٥٤ – ٥٥.

[8] الكامل في التاريخ، 10 /50.

[9] الدوري، محمد شاكر، أثر رحلات الحج في نشر الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء وجنوب شرق أسيا (دراسة مقارنة)، مجلة الفارابي للعلوم الإنسانية، العدد 8، الجزء 1، 2025م، ص412.

[10] سورة الممتحنة، الآية: 8.

والصناع من أهل الذمة من سكان البلاد الاصلية؛ إذ عمل الإسلام على حمايتهم وسهل لهم بناء مشاريعهم الصناعية؛ لتفيد منها الدولة الإسلامية، بل الأكثر من ذلك أن الإسلام شجع الصناعة عند رعايا الدولة الإسلامية[1] ما لم يكن حرامًا ومعارضة لقيمه؛ فكان من سياسة ولاة الأمر المسلمين أن أبقوا على تلك الصناعات في أيدي أهل الذمة، وشجعوهم على ذلك، واستعملوهم في الصناعات المختلفة التي احتاجت إليها الدولة الإسلامية، وقد ذكر ابن جبير في وصفه لقسم من المدن التي زارها في رحلته كمدينة عكا التي وصفها بقوله: **"سككها وشوارعها تغص بالزحام، وتضيق فيها مواطئ الأقدام"**[2].

ومما تقدم نلحظ أن مدن بلاد الشام بثروتها المعدنية كانت عبارة عن مراكز صناعية؛ مما يشير إلى إسهاماتها الاقتصادية التي مثلت رافدًا مهمًّا من روافد التمويل الاقتصادي للدولة الإسلامية في ذلك الوقت؛ ولذلك فقد عني الخلفاء المسلمون منذ العصر الأموي بالجانب الصناعي والنهوض بالواقع الاقتصادي للمجتمع المسلم إدراكًا منهم لأهمية الاقتصاد والصناعة في استقرار الدولة، فقد شجعوا الصناعة ودعموا الصناعيين من مسلمين وغيرهم؛ فكانوا يستدعون الصناع من أهل الذمة[3] إلى المدن الرئيسة للإفادة من خبراتهم التي اكتسبوها من مزاولة أعمالهم واختلاطهم مع الروم الذين كانوا يحتلون بلاد الشام قبل تحريرها، وأول خطوة اتخذها الخلفاء منذ العصر الأمويين العناية بالاقتصاد، وسك النقود وتعريبها بعد أن كانت إما رومية أو فارسية، وهذا يعود لأهميتها أي النقود في الأمن القومي للدولة واستقرارها الاقتصادي[4].

المبحث الثاني: دور أهل الذمة وإسهامهم في تطوير الصناعة

- **مدخل**

يمثل الإسلام بمنهجيته في بناء حياة الإنسان الدافعة والمرتكز للنهوض بحياة إنسانية متوازنة، ينهض بها الجانبان الجانب الروحي والفكري الذي يستند إلى مبادئ الشريعة الإسلامية السمحاء، والجانب المادي الذي يشكل نتاجًا طبيعيًّا لإفرازات الاستقرار الفكري والتقدم نحو إيجاد مستلزمات الحياة التي تسهم في خدمة الإنسان من الماديات كالمخترعات المادية والوسائل التقنية التي يحتاجها الفرد في حياته.

واستنادًا إلى هذا المبدأ فقد أوجد المنهج الإسلامي مجتمعًا مستقرًا، ويسهم في بنائه كل المنتمين إلى الدولة الإسلامية سواء أكانوا مسلمين أم من غيرهم من أهل الكتاب الذين اصطلح الفقهاء بوصفهم بأهل الذمة؛ فقد كان لهم دورٌ كبيرًا في بناء الحياة المجتمعية في عصر الحروب الصليبية وقبله، وهذا يؤشر إلى المبدأ الإنساني للإسلام الحنيف بوصفه منهجًا بناءً لا منهج هدم للإنسان لكونه العنصر الأهم الذي تنشأ في وجوده الحضارات، وأوضح دليلٍ على ما ذكرناه قوله تعالى: (وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا)[5] فالتكريم موجه للإنسان أيًّا كان وصفه ودينه، وعملنا في هذا البحث الكشف عن إسهامات أهل الذمة الصناعية ودورهم في بناء أدوات الصناعة التي يحتاجها المجتمع آنذاك، وذلك في بلاد الشام وعصر الحروب الصليبية المنحصر

---

(1) محمد نصيف، الشعائر الرمضانية في المغرب الإسلامي، مجلة جامعة كركوك للدارسات الإنسانية، المجلد 19، العدد 2، الجزء 2، 2024م، ص195.

(2) ابن جبير، محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي، أبو الحسين (ت ٦١٤هـ)، رحلة ابن جبير، دار بيروت للطباعة والنشر، (بيروت- د.ت)، ٢٧٦.

(3) إبراهيم، محمد خلف، الفتاوى الدينية واثرها على حياة أهل الذمة في العصر المملوكي، مجلة الملوية للدراسات الآثارية والتاريخية، المجلد 12، العدد 39، 2025، ص 139.

(4) العلي، صالح احمد، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري، دار الطليعة، (بيروت -١٩٦٩م)، ص ٣٠٢؛ العبادي، أحمد مختار، مجموعة دراسات في تاريخ الحضارة العربية، دار المعرفة، (الاسكندرية -1999م)، ص ١٢١– ١٢٢.

(5) سورة الإسراء، الآية:70.

بين (491- 589ه/1098-1193م)، وهدفنا من ذلك بيان تكريم دولة الإسلام لمواطنيها، فلم تشعرهم بأي تمييزٍ في معاملتها، وكانوا جزءًا غير قابلٍ للفصل في بناء حضارتها، على وفق كون المخترعات الصناعية إحدى المنجزات المادية للحضارة الإنسانية.

- **إسهامات أهل الذمة الصناعية**

إن العنصر البشري المبدع يمثل أحد أهم ركائز الصناعة المتكاملة، وفي هذا الصدد قبل الحديث عن إسهامات أهل الذمة في هذا المجال لابد إلى الإشارة إلى مسألتين تتعلقانِ بالموقف الاجتماعي للعرب قبل الإسلام من الصناعة، والذي كان له أثرٌ في نظرتهم لها بعد الإسلام أيضًا، إذ أنِف العربيُ آنذاك من الاشتغال بالصناعات، ولاسيما صناعة الأسلحة من السيوف والرماح، وأدوات الزراعة والجلود؛ إذ كانوا يعهدون بها إلى غلمانهم وقيانهم؛ فالصناعة في مبدأ أمرها مهنة القيان والعبيد، وهذا الموقف استمر أثره إلى ما بعد الإسلام، والدولة الإسلامية منذ فجر نشأتها في عهد الرسول ﷺ[1] ومن بعهده الخلفاء الراشدون كانت محاطةً بالإعداء المتربصين بها للانقضاض عليها؛ إذ مثلت تهديدًا وجوديًّا لدولتي فارس والروم، ومسألة الدفاع عن الإسلام ودولته فضلًا عن الفتوحات الإسلامية التي كان ينظر إليها الخلفاء المسلمون على أنها تكليف إلهي لنشر الإسلام في ربوع المعمورة، وهذه المهمة تحتاج إلى عدة وعدد؛ ولذا فقد انخرط المسلمون العرب ومن دخل في الإسلام فيما بعد في صفوف الجيوش الإسلامية المدافعة عن دولة الإسلام، ولا سيما في الجبهة الغربية والشمالية التي كان يتربص بها الروم الصليبيون، وهذا الأمر مثل سببًا رئيسًا لانصراف معظم المسلمين عن مزاولة الصناعة، وقد تركت لغيرهم من طبقة العبيد والقيان أو من أهل الذمة، ويمكن القول إن هذه القاعدة تنطبق على معظم المسلمون وإلا فهناك قسم منهم اشتغل أيضًا بالصناعة والتجارة، فانصرافهم عنها ليس قصورًا في كفاءتهم أو خبراتهم وإنما استجابة لظرف قائم آنذاك؛ وهو الدفاع عن الإسلام ودولته المهددة على مرّ عصورها.

وهنا تكمن الإجابة على التساؤل الذي مفاده لما اشتهر أهل الذمة من الكتابيين بالصناعة وما تتطلبه من أمور تتصل بها؟ وقد ذكر المؤرخون أن أهل بيت المقدس في عصر الحروب الصليبية انشغلوا في الدفاع عن بلاد الشام وتركوا أمور الحياة الأخرى ومنها الصناعات لغيرهم مكن أهل الذمة، ولا سميا اليهود الذين اشتهروا في مهنة الصباغة حتى وصل الأمر بهم لاحتكارها في عهد الملك عموري الأول (561- 570ه/ 1065-1074م) [2].

واستطاع ولاة الأمر في ذلك الوقت معالجة النقص السكاني في بيت المقدس للحروب التي كانت قائمة عن طريق الاستعانة باليد العاملة بأهل الذمة ولا سيما ما حدث في مدينة عكا التي امتلأت بالأيدي العاملة من أهل الذمة، كما وصفها ابن جبير بقوله: **"سككها وشوارعها تغص بالزحام، وتضيق فيها مواطئ الأقدام"** [3].

ومن الأسباب الأخرى التي أدت إلى تعاظم دور أهل الذمة في الصناعات أن الصليبيين الذين سيطروا على المدن الشامية أوجدوا نوعين من الأسواق أولها الأسواق الملكية التي تدار من قبل السلطة متمثلة بالملك، وثانيها الأسواق الايطالية وهي أسواق خاصة بالرعية، أي رعية الملك الصليبي؛ إذ عهد بإدارتها إلى التجار الايطاليين من داخل الأحياء الايطالية التي أوجدها الصليبيون على أرض بلاد الشام [4].

ومن المعلوم في مثل هذه الأحوال أن الغزاة الصليبيين سيعتمدون في ذلك على أهل الذمة أو مَن تعاون منهم معهم لاشتراكهم في الديانة وقربهم الثقافي، وهذا سببٌ رئيس لتعاظم دور أهل الذمة الصناعي في تلك المدة (491-589ه/1098-1193م)، إذ إن المحتل غالبًا ما يعمدُ

---

[1] الدوري، محمد شاكر، جهود السلطان المملوكي الظاهر بيبرس في إحياء الخلافة العباسية في مصر من كتاب "عيون الأخبار ونزهة الأبصار لمحمد بن أبي السرور البكري". دراسة وتحقيق، مجلة جامعة كركوك للدراسات الإنسانية، المجلد 19، العدد 2، الجزء 2، 2024م، ص 1509.

[2] ترتون، أ.س .، أهل الذمة في الإسلام، ترجمة: حسن حبشي، ط3، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (الظاهرة – 1994م)، ص 101.

[3] ابن جبير، الرحلة، ص 276.

[4] الطحاوي، حاتم عبد الرحمن، الاقتصاد الصليبي في بلاد الشام، دار عين، (القاهرة – ١٩٩٩ م)، ص110- 111.

إلى البحث على من يتعاون معهم لتطبيق مبادئه على أرض الواقع ونشرها محاولة منه على محو التكوين الثقافي والحضاري للبلاد التي يحتلونها.

ومن المهم في هذا المقام الإشارة إلى مسألة ذكرها المؤرخون تتعلق بسياسة الصليبيين في بدء وجودهم في بلاد الشام؛ إذ نظروا إلى الصناع وأرباب المهن في بلاد الشام نظرة دونية من حيث ممارستهم للصناعات التي كانوا يمتهنونها، وكان معظم هؤلاء الصناع من اليهود والنصارى والأرمن[1].

ويعزى ذلك إلى طبيعة المجتمع الإقطاعي الأوروبي الذي كان يحتقر العمل اليدوي ويقصره على الطبقات الدنيا، فضلًا عن الخلفية الدينية والثقافية التي جعلتهم ينظرون إلى سكان المشرق مسلمين وأهل ذمة، نظرة استعلاء حضاري، غير أن هذه النظرة بدأت تتبدل تدريجيًّا مع ازدياد احتكاكهم بالصناع الشاميين واطلاعهم على براعتهم في مختلف المهن الدقيقة، ولا سيما في صناعة المعادن والحلي والمنسوجات. بيد أنهم ومع تقادم الزمن وظهور طبقة البولان من الصليبيين المتأخرين الذين عرفوا بانسجامهم مع الصناع الشرقيين وشاركوهم في صناعاتهم وتعلموا منهم؛ ليوجدوا طبقة من الصناع والحرفيين الصليبيين حتى يستغنوا عن أهل الأرض الأصليين؛ لذلك وضعوا لهم توصيفًا قانونيًّا خاصًّا جعلهم أفضل من الصناع المحليين أهل الأرض [2]، وقد وصل الأمر أن الصانع الصليبي كان يتمتع بهامش من الحرية واسعًا، بخلاف الصانع الشامي من أهل الذمة الذين كانت تواجههم عقبات كثيرة لممارستهم لحرفهم الصناعية، كل ذلك محاولة من المحتل الصليبي لتدمير الصناعات المحلية، وجعلها محتكرة بيد الصليبيين أنفسهم[3].

واستفحلت عنصرية الصليبي في نظرته إلى الصناع الأصليين من أهل الأرض؛ إذ عمل الصليبيون على إنشاء مصانع خاصة لأتباعهم كمصانع الصابون التي أنشأت في المناطق التي تزدهر بها زراعة أشجار الزيتون، والمواد الخام الأخرى، وكان دور أهل الذمة من الشاميين مقتصرًا على الأعمال المجردة وليسوا بأصحاب الملك[4].

ومما يتعلق بإسهامات أهل الذمة في الصناعة في بلاد الشام صناعة الورق؛ إذ ظهرت هذه الصناعة في مدينة طرابلس، ولجودته وشهرته فقد صُدِّر إلى المدن والبلاد الأخرى؛ إذ تفوق في جودته على الورق السمرقندي المعروف في ذلك الوقت[5]، وفي طرابلس أيضًا اشتهرت صناعة الصباغة التي كانت تعتمد بشكل رئيس على نوعٍ من النباتات تستخرج منها هذه الأصباغ[6]، ومن الولايات والمدن الشامية مدينة دمشق التي كانت في ذلك الزمن بوصفها أكبر الأمصار الإسلامية في بلاد الشام مركزًا صناعيًّا للعديد من الصناعات، ومنها صناعة المنسوجات الحريرية التي سميت في ذلك الوقت بـ (دمسق) نسبة إلى مدينة دمشق[7].

---

[1] براور، الاستيطان الصليبي، ص ٤٨٧ – ٤٨٩؛

oldenbourg (Z), Les Croisades, Gallimard, 1965 ,BP 537 – 539.

[2] براور، الاستيطان الصليبي، ص ٤٨٧ – ٤٨٩؛

oldenbourg (Z), Les Croisades, Gallimard, 1965 ,BP 537 – 539.

[3] ترتون، أهل الذمة، ص 101.

[4] البيشاوي، سعيد عبدالله، الممتلكات الكنسية في مملكة بيت المقدس الصليبية، (٤٩٢ – ٦٩٠هـ/ ١٠٩٩ -١٢٩١م)، دار المعرفة، (الاسكندرية – ١٤١٠ هـ/١٩٩٠م)، ص ٤٣٣.

[5] ناصر، خسرو، سفرنامة، ص ٤٨.

[6] سالم، عبد العزيز، طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي، (الاسكندرية -١٩٦٧م)، ص 232.

[7] كرد، خطط الشام، 201/4.

وقد وصف قسم من المؤرخين دمشق بأنها **"جامعة لصنوف من المحاسن وضروب من الصناعات وأنواع من الثياب الحرير كالخز والديباج النفيس الثمين العجيب الصنعة والعديم المثال الذي يحمل منها الى كل بلد"**[1] وهنا لا بدَّ من الإشارة إلى أن معظم أصحاب الصناعات هذه كانوا من أهل الذمة[2] واشتهرت مدن بلاد الشام ولا سيما المطلة على البحر في العديد من الصناعات منها: صناعة الأثاث والادوات الخشبية المنزلية، وأنواع من الآلات الحربية كالمناجق والسلالم والدبابات والسفن، ومعظم المشتغلين في هذه الصناعات من أهل الذمة من سكان مدن بلاد الشام[3].

ولم تقتصر الأنشطة الصناعية في بلاد الشام على أهل الذمة وحدهم، بل شاركهم فيها المسلمون أيضًا، لا بل هناك صناعات كانت نشأتها إسلامية كالمنسوجات الحريرة في دمشق[4]. إذن كان التعاون بين الجانبين سمة بارزة في العديد من المهن والحرف، وقد أسهم هذا التفاعل المهني في تطور الصناعة وتبادل الخبرات الفنية، مما يعكس روح التعايش والتكامل الاقتصادي والاجتماعي التي ميزت المجتمع الإسلامي في تلك الحقبة.

ومن المدن الصناعية في بلاد الشام مدينة صور التي اشتهرت بصناعة الزجاج، واشتهر نسبة إليها الزجاج الصوري، فضلًا عن الفخار والثياب البيض الحسان التي كان يتاجر بها إلى سائر البلدان[5]، ومن الصناعات التي اشتهرت في بلاد الشام صناعة المراكب[6]؛ لقربها من البحار، علاوة على صناعات النسيج والصياغة والأحجار الكريمة في حلب وكان أكثر من يشتغل بها من النصارى[7].

ومن المدن التي اشتهرت بالصناعة أيضًا مدينة بيت المقدس؛ إذ كثر صنّاعها وتعددت صناعاتها، وكان لكل صناعة سوق خاص بها[8]، ومدينة الرها التي عرفت بصناعة الورق وأجود أنواع الخشب الذي أطلق عليه خشب العناب[9]، كذلك مدينة بيروت كانت من المدن الصناعية التي اشتهرت بكثرة جبالها واحتوائها على عنصر الحديد[10]، ولا ننسى مدينة انطاكيا التي اشتهرت بصناعاتها المتنوعة ومنها صناعة الثياب التي عرفت بأسماء كثيرة[11].

---

(1) الادريسي، نزهة المشتاق، 1/ ٣٦٩.

(2) رنسيمان، ستيفن، الحملات الصليبية، ترجمة : نور الدين خليل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، (د. م– د. ت)، 35/2.

(3) ابن شداد، عز الدين أبو عبدالله محمد بن علي (ت ٦٨٤ هـ)، الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة، تحقيق: سامي الدهان، (دمشق – ١٩٦٢ م)، ص ١٠١- ١٠٢؛ النقاش، زكي، العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والافرنج خلال الحروب الصليبية، دار الكتاب اللبناني، (د.م- د.ت) ص١٧٤؛ علي، العلاقات الاقتصادية، ص 13.

(4) كرد، خطط الشام، 201/4.

(5) الادريسي، نزهة المشتاق، 1/ 365-366؛ التطيلي، بنيامين بن يونة (عاش في القرن السادس الهجري)، رحلة بنيامين (من 561- 569هـ/ ١١٦٥-١١٧٣م)، ترجمة: عزرا حداد، تقديم : عبدالرحمن عبدالله الشيخ، المجمع الثقافي، (ابوظبي - ٢٠٠٢م)، ص 238.

(6) ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص ٢٥٥.

(7) الغزي، كامل بن حسين بن محمد (ت 1351هـ)، نهر الذهب في تاريخ حلب، دار القلم، ط2، (حلب- 1419هـ)،١/ ٩٢-٩٤.

(8) ناصر خسرو، سفرنامه، ص ٥٦.

(9) الحميري، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن عبد المنعم (ت900هـ)، الروض المعطار في خبر الاقطار، تحقيق: إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، ط2، (بيروت-1980)، ص ٢٧٣.

(10) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٨٤.

(11) الادريسي، نزهة المشتاق،2 /٦٤٥؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٣٨.

واشتهر أهل الذمة في بلاد الشام في صناعة زيت الزيتون وما يمكن أن يستخدم في صناعات أخرى، وقد فرضت عليهم ضرائب كبيرة وصلت إلى نصف الشجر المزروع[1]، وقد ذكر الدارسون أن الصليبيين في احتلالهم لبلاد الشام قد استعملوا أهل الذمة بأسلوب السخرة في أعمال التشييد والبناء وصناعة الزجاج والخزف والسكر، وممارستهم لهذه الأعمال تحت الاحتلال الصليبي قد اكسبهم مهارة واتقان لها؛ مما أعطاهم ميزة التفوق على غيرهم في هذه الصناعات، ومن أغرب أعمال الصناعة التي مارسها أهل الذمة إنهم كانوا يجلبون الثلج من جبال لبنان محفوظًا بأوانٍ خاصةٍ مكسوة بالقش ليستعملوه في تبريد المشروبات الكحولية[2].

ومن الصناعات التي أبدع فيها أهل الذمة صناعة الفخار المزجج؛ إذ تفنن الصناع من أهل الذمة في صناعته وبأدق التفاصيل، وقاموا بتصديره إلى أوربا[3]، وامتهن أهل الذمة لمعظم الصناعات القائمة آنذاك، ومنها صناعة الاواني المعدنية المنزلية ولا سيما النحاسية منها، وقد استعملها الصليبيون في تزيين قصورهم وبيوتهم، واتصفت صناعتها بالدقة والجمال، وكان يكتب عليها جملًا من الحكم والأشعار لكنها في معظم الأحيان احتفظت بطابعها الصناعي الذمي؛ إذ احتوت على رموزٍ ونقوشٍ تمثل معتقدات اليهود والنصارى، وتدل على أنها من صنعتهم، فضلًا عن الصناعات الغزلية من الملبوسات والمنسوجات بألوانها الزاهية، وأنواع السجاد والفخار والصابون[4].

وشهدت كذلك مدن بلاد الشام ازدهارًا ملحوظًا في صناعة الحُلي والمجوهرات الذهبية، وهي حرفة تميّزت في مراحلها الأولى بسيطرة الحرفيين من أهل الذمة عليها، ومع مرور الزمن، انخرط بعض الصليبيين في هذه الصناعة بعد أن اكتسبوا مهاراتها من الحرفيين المحليين، فمارسوها إلى جانب الصناع الأصليين، وقد حظيت هذه الحرفة باهتمام خاص من الملوك والأمراء لما لبّته من احتياجات شخصية ودينية؛ إذ استُخدمت منتجاتها في تزيين الكنائس ودور العبادة، ونظرًا لأهميتها الاقتصادية والاجتماعية بلغت صناعة المجوهرات في الشام مكانة بارزة، حتى أن أسعارها كانت تُحدَّد بأوامر ملكية، كما خضعت منتجاتها للفحص والإشراف من قبل السلطة الملكية الصليبية، وقد نُظِّمت مهنة الصياغة تنظيمًا دقيقًا، فخُصصت لها شوارع محددة في المدن، ومن أبرزها الشارع المخصص لتجارة المصوغات في مدينة القدس[5].

وقبل أن نختم حديثنا عن إسهامات أهل الذمة لا بدَّ من الإشارة إلى مسألة مهمة وهي كون الصناعات بمختلف أنواعها وأشكالها كانت ابنة البيئة الشامية فيها ولدت وترعرعت وتطورت، ولم يأتِ بها الغزاة الصليبيون إلى بلاد الشام؛ فأهل الشام ولا سيما أهل الذمة هم من ابتكرها، وهم من طورها وارتقى بها لتنافس الصناعات الأوربية في ذلك الزمن[6].

وبناءٌ على ذلك كله فإن الصناعات الشامية سواء أكانت قبل الحروب الصليبية أم في إثنائها أم بعدها مثلت انجازات حضارية إسلامية على وفق كون المسلمين من دعمها واسس لها، وشجع الصناع من رعايا الدولة الإسلامية سواء أكانوا مسلمين أم كتابيين على تطورها فالحضارة الإسلامية، حضارة منفتحة تكاملية وليست منغلقة.

الخاتمة

---

(1) امطير، محمد سامي أحمد، الحياة الاقتصادية في بيت المقدس وجوارها في فترة الحروب الصليبية (٤٩٢ – 583هـ/ ١٠٩٩- ١١٨٧م)، (رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة النجاح، فلسطين، ٢٠١٠ م)، ص٩٧.

(2) علي، العلاقات الاقتصادية، ص ٢٥.

(3) النقاش، العلاقات، ص ١٧٩ – ١٨٠.

(4) رنسيمان، تاريخ الحملات الصليبية،٢/ ٣٥؛ النقاش، العلاقات، ص ١٨١ – ١٨٤.

(5) الطحاوي، الاقتصاد الصليبي، ص ٢١٦ ؛ النقاش العلاقات، ص ١٨٤.

(6) هايد، ف، تاريخ التجارة، ترجمة: عزالدين فودة، (القاهرة – ١٩٨٥م)،1/ ١٨٨- ١٨٩؛ البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص ٤٢٦- ٤٢٧، ٤٣٣ – ٤٣٥؛ الطحاوي، الاقتصاد الصليبي، ص ٤١٥.

يتضح من البحث أنّ أهل الذمة قد شكلوا عنصرًا فاعلًا في البنية الاقتصادية والصناعية لبلاد الشام في مدة الحروب الصليبية الممتدة من سنة (491هـ - 589هـ/1098–1193م)، وهي فترة اتسمت بالاضطرابات السياسية والصراعات العسكرية التي أثّرت بعمق على مختلف مجالات الحياة وعلى الرغم من ذلك؛ فقد استطاع أهل الذمة أن يحافظوا على مكانتهم الاقتصادية وأن يواصلوا نشاطهم الصناعي بكفاءة عالية، مساهمين بذلك في دعم الاستقرار الاقتصادي والاجتماعي داخل المجتمع الشامي؛ لذلك فقد توصلت الدراسة إلى عدد من النتائج يمكن تلخيصها في النقاط الآتية:

1- أنّ الصناعات التي مارسها أهل الذمة لم تكن تقليدية أو محدودة النطاق، بل شملت مجالات متعددة مثل صناعة المعادن، وصياغة الحلي والمجوهرات، وصناعة النسيج، والزجاج، والفخار، والأصباغ، وغيرها من الحرف التي عُرفت بجودتها ودقتها.

2- تميّزت الصناعات الطبيعية غير المعدنية من الرخام والطين، بطابعها الحرفي الراقي الذي جمع بين المهارة الفنية والإبداع التقني، مما جعل منتجاتهم مرغوبة داخل بلاد الشام وخارجها، كما أنّ مهاراتهم الصناعية لم تبق حكرًا عليهم، بل انتقلت إلى غيرهم من الصناع المسلمين والصليبيين؛ الأمر الذي في تطور الخبرة الحرفية بشكل متبادل بين مختلف فئات المجتمع.

3- ساهمت صناعاتهم في تعزيز قدرة بلاد الشام على الصمود الاقتصادي في وجه الحروب الصليبية، وأضفت على المدن طابعًا حضاريًا متقدّمًا، انعكس في ازدهار الأسواق وازدياد النشاط التجاري.

4- ساعدت عوامل متعددة على قيام هذه الصناعات واستمرارها، في مقدمتها رأس المال الذي امتلكه الصليبيين وبعض أفراد أهل الذمة، والموقع الجغرافي الاستراتيجي لبلاد الشام الذي جعلها مركزًا للتبادل التجاري بين المشرق والمغرب، إضافةً إلى الحماية القانونية التي وفّرها لهم النظام الإسلامي القائم على العدل والضمان الاجتماعي الذي لم يفرق بين المسلمين وغيرهم، والذي مكنهم من ممارسة أنشطتهم الاقتصادية في إطار من الأمان النسبي.

5- أدَّت الخبرة المتراكمة لأهل الذمة عبر الأجيال دورًا محوريًّا في تطوير أدوات الإنتاج وتحسين أساليبه؛ مما جعل صناعاتهم ركيزة أساسية في الحياة الاقتصادية.

6- التشجيع الذي قدمه الخلفاء المسلمين منذ العصر الاموي مرورًا بالعصر العباسي بالجانب الصناعي، وتوفير كل السبل التي من شأنها تطوير الاقتصاد بشكل عام والصناعة بشكل خاص.

7- إنّ دراسة إسهامات أهل الذمة الصناعية تكشف عن جانب مهم من جوانب التفاعل الإنساني في الحضارة الإسلامية، وتؤكد أنّ هذه الحضارة لم تكن مغلقة على فئة من دون أخرى، بل احتضنت كل من أسهم في بنائها على اختلاف معتقداته وأصوله.

List of sources and references

1. Ibrahim, Muhammad Khalaf, Religious Edicts and Their Impact on the Lives of Non-Muslims in the Mamluk Era, Al-Malawiya Journal for Archaeological and Historical Studies, Volume 12, Issue 39, 2025.

2. Ibn al-Athir, Ali ibn Abi al-Karam al-Shaybani (d. 630 AH/1233 CE), Al-Kamil fi al-Tarikh (The Complete History), edited by Omar Abd al-Salam Tadmur, Dar al-Kitab al-Arabi (Beirut, 1417 AH).

3. Al-Idrisi, Muhammad ibn Muhammad ibn Abdullah (d. 560 AH/1165 CE), Nuzhat al-Mushtaq fi Ikhtiraq al-Afaq (The Delight of the One Who Yearns to Traverse the Horizons), Alam al-Kutub (Beirut, 1409 AH).

4. Amteir, Muhammad Sami, Economic Life in Jerusalem and Its Environs During the Crusades (492-583 AH/1099-1187 CE), (Unpublished Master's Thesis, An-Najah National University, Palestine, 2010).
5. Brower, Joshua, Crusader Settlement, translated by Abd al-Hafiz al-Yana (Cairo, 2001).

6. Al-Bishawi, Saeed Abdullah, Church Properties in the Crusader Kingdom of Jerusalem (1099-1291 AH/492-690 AH), Dar al-Ma'rifah (Alexandria, 1410 AH/1990) , Edited by Suhayl Zakkar, Dar al-Fikr (n.p., n.d.).

7. Tritton, A.S., People of the Covenant in Islam, translated by Hassan Habashi, 3rd ed., Egyptian General Book Organization (Al-Zahra, 1994).

8. Al-Tutili, Benjamin ibn Yunus, The Travels of Benjamin (561-569 AH/1165-1173 CE), translated by Ezra Haddad, introduction by Abdul Rahman Abdullah Al-Sheikh, Cultural Foundation, (Abu Dhabi, 2002 CE).

9. Toribod, Peter, History of the Journey to Jerusalem, translated by Hussein Muhammad Atiya, introduction by Joseph Nassim Youssef, (n.p., 1999 CE).

10. Ibn Jubayr, Muhammad ibn Ahmad ibn Jubayr al-Kinani al-Andalusi, Abu al-Husayn (d. 614 AH), The Travels of Ibn Jubayr, Dar Beirut for Printing and Publishing, (Beirut, n.d.).

11. Al-Himyarī, Abu Abdullah Muhammad ibn Abdullah ibn Abd al-Mun'im (d. 900 AH/1495 CE), The Fragrant Garden in the News of the Regions, edited by Ihsan Abbas, Nasser Foundation for Culture, 2nd edition, (Beirut, 1980 CE).

12- Ibn Khurdadhābah, Abu al-Qasim Ubayd Allah ibn Abdullah (d. 280 AH/893 CE), Al-Masālik wa'l-Mamālik (Routes and Kingdoms), Dar Sader Afst Leiden, (Beirut - 1889 CE).

13- Ibn Khaldun, Abd al-Rahman ibn Muhammad (d. 808 AH/1405 CE), Al-Ibar wa Diwan al-Mubtada' wa'l-Khabar fī Ayyām al-Arab wa'l-Ajam wa'l-Barbar wa man Asārahum min Dhawi al-Sultan al-Akbar (Lessons and Collection of Beginnings and Ends Concerning the Days of the Arabs, Persians, and Berbers and Their Contemporaries of Great Power), Dar wa Maktabat al-Hilal, (Beirut - 1996 CE).

14- Al-Dawri, Muhammad Shakir, The Impact of Hajj Journeys on the Spread of Islam in Sub-Saharan Africa and Southeast Asia (A Comparative Study), Al-Farabi Journal of Human Sciences, Issue 8, Part 1, 2025 CE.

15- _____, The Efforts of the Mamluk Sultan al-Zahir Baybars in Reviving the Abbasid Caliphate in Egypt, from the book "Uyūn al-Akhbār wa Nuzhat al-Absār" by Muhammad ibn Abi al-Surur al-Bakri. Study and Investigation, Kirkuk University Journal of Humanities, Volume 19, Issue 2, Part 2, 2024.

16- Reda, Ahmed, Dictionary of the Language Text, Dar wa Maktabat al-Hayat (Beirut, 1377 AH/1958 CE).

17- Runciman, Stephen, The Crusades, translated by Nour El-Din Khalil, Egyptian General Book Organization, 2nd edition (n.p./n.d.).

18- Raymonda, Gill, History of the Franks, Conquerors of Jerusalem, translated by Hussein Muhammad Atiya, introduction by Joseph Nassim Youssef (Alexandria, 1990 CE).

19- Ziyoud, Muhammad Ahmed, The Economic Conditions of the Levant from the Tulunid Era to the End of the Fatimid Era, Dar al-Fikr (Damascus, 1992 CE).

20- Salem, Abdul Aziz, Tripoli of the Levant in Islamic History (Alexandria, 1967 CE). 21. Chartres, Fouché, *History of the Campaign to Jerusalem*, translated by Ziad Jamil al-Asali, Dar al-Shuruq (Amman, 1990).

22. Ibn Shaddad, Izz al-Din Abu Abdullah Muhammad ibn Ali (d. 684 AH/1285 CE), *Al-A'laq al-Khatira fi Dhikr Umara' al-Sham wa al-Jazira*, edited by Sami al-Dahhan (Damascus, 1962 CE).

23. Al-Safadi, Salah al-Din Khalil ibn Aybak (d. 764 AH/1363 CE), *Tasheeh al-Tashif wa Tahrir al-Tahreef*, edited by al-Sayyid al-Sharqawi, Maktabat al-Khanji (Cairo, 1407 AH/1987 CE).

24. Al-Suri, William, *The Crusades*, translated by Hassan Habashi, Egyptian General Book Organization (Cairo, 1991 CE).

25. Al-Tahawi, Hatim Abd al-Rahman, *The Crusader Economy in the Levant*, Dar Ain (Cairo, 1999 CE). 26- Al-Abbadi, Ahmad Mukhtar, A Collection of Studies in the History of Arab Civilization, Dar al-Ma'rifah, (Alexandria, 1999).

27- Ibn al-'Adim, 'Umar ibn Ahmad, Kamal al-Din (d. 660 AH/1262 CE), Bughyat al-Talab fi Tarikh Halab (The Desire of the Seeker in the History of Aleppo), edited by Suhayl Zakkar, Dar al-Fikr, (n.p., n.d.).

28- Al-'Ali, Salih Ahmad, Social and Economic Organizations in Basra in the First Century AH, Dar al-Tali'ah, (Beirut, 1969).

29- Al-Ghazzi, Kamil ibn Husayn ibn Muhammad ibn Mustafa (d. 1351 AH/1932 CE), Nahr al-Dhahab fi Tarikh Halab (The River of Gold in the History of Aleppo), Dar al-Qalam, 2nd ed., (Aleppo, 1419 AH).

30- Al-Qazwini, Zakariya ibn Muhammad ibn Mahmud (d. 682 AH/1283 CE), Athar al-Bilad wa Akhbar al-'Ibad (The Monuments of the Lands and the Histories of the People), Dar Sader, (Beirut, n.d.).

31- Kurd Ali, Muhammad ibn Abd al-Razzaq ibn Muhammad (d. 1372 AH/1952 CE), *Khitat al-Sham* (Plans of Damascus), Al-Nuri Library, 3rd ed. (Damascus, 1403 AH/1983 CE).

32- Muhammad Nasif, *Ramadan Rituals in Islamic Morocco*, Kirkuk University Journal of Humanities, Vol. 19, No. 2, Part 2, 2024 CE.

33- Al-Maqdisi, Abu Abdullah Muhammad ibn Ahmad (d. 600 AH/1204 CE), *Ahsan al-Taqasim fi Ma'rifat al-Aqalim* (The Best Divisions for Knowledge of the Regions), Dar Sader (Beirut, n.d.).

34- Ibn Manzur, Abu al-Fadl Muhammad ibn Mukarram ibn Ali (d. 711 AH/1311 CE), *Lisan al-Arab* (The Tongue of the Arabs), Dar Sader, 3rd ed. (Beirut, 1414 AH). 35. Nasir, Khusraw, Safarnama, edited by Yahya al-Khashab, Dar al-Kitab al-Jadid, 3rd edition (Beirut, 1983).

36. Al-Naqqash, Zaki, Social, Cultural, and Economic Relations between the Arabs and the Franks during the Crusades, Dar al-Kitab al-Lubnani (n.p., n.d.).

37. Hyde, A History of Trade, translated by Izz al-Din Fawda (Cairo, 1985).

38. Yaqut al-Hamawi, Shihab al-Din Abu Abdullah (d. 626 AH/1229 CE), Mu'jam al-Buldan (Dictionary of Countries), Dar Sader, 2nd edition (Beirut, 1995).

39. Oldenbourg (Z), Les Croisades, Gallimard, 1965.